

**رمزيتا الماء والنار
في الأساطير والأديان**

**Water and Fire symbolism
in myths and religions**

د. زهرة الثابت

**كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القيروان، تونس**

thzohra@gmail.com



رمزيتا الماء والنار في الأساطير والأديان

د. زهرة الثابت

الملخص:

تبوأَت المياه والنار منزلة مهمة في حياة الشعوب البائدة والحضارات القديمة، فالمياه هي مصدر الحياة لذلك قدسها الإنسان فالفكر الإغريقي يعتبر أن الماء أصل الكون لذلك حظي بآيات تبجيل دينية واعتقد المصريون أن الإله رع أول من خرج من المياه الأولى وأما السومريون فإن البداية المائية عندهم موجودة في فكرة الإينوما إليش. باختصار لقد اعتقد الإنسان الأول في قدسية المياه واعتبرها لها أمن بقوته وقدرته وسخائه وبطشه فعلق المرء استهياماته على هذا العنصر الطبيعي واعتبره ملاذه الأمن فجعله رمزا دالا على الخلق واستمرار الحياة أو الطهارة الجسدية منها والروحية ورمزا دالا أيضا على الثواب والعقاب. وهي دلالات حملها الإنسان للماء مثلما تجليها الأساطير أو النصوص الدينية المقدسة. كما قدس الإنسان الديني أيضا النار كالماء تماما فاعتقد فيها واعتبرها رمزا لحضور الإلهي بين البشر ورمزا للبعث المتجدد.

الكلمات المفتاحية: رمز، الماء، النار، الأسطورة، الدين.

Abstract:

Water and Fire assumed an important place in the lives of ancient peoples and civilizations. In fact, water is the origin of life, so man sanctified it. The Greek thought considered water to be the origin of the universe, it also received a speech of religious reverence, The Pharaohs believed that God « Ra » emerged from the holy water. As for the Sumerians, the aqueous beginning is found in the idea of Aynomalish. In short, the first man believed in the sanctity of water, and considered it a god who believed in his power, generosity, and oppression.

One commented on this natural element as his safe haven. Therefore, he made it a symbol indicative of creation and the continuation of life or physical and spiritual purity. He also considered it a symbol indicative of reward and punishment, and those are the indications that the human carries with water in its manifestation of myths and sacred religious texts. Also, the religious man sanctified fire exactly like water, so he believed in it and considered it a symbol of the divine presence among people, and a symbol of renewed resurrection.

Key words: Symbol – Water- Fire - Myth – Religion

1- المقدمة:

للماء قيمة مهمّة في حياة الإنسان والحيوان والنبات إذ هو سرّ الوجود ومعجزة الطبيعة، بل هو "أداة حيوية في تكوين الحضارات وانتشارها وازدهارها"¹. وقد عرفت المجتمعات الإنسانية منذ خلقت على وجه البسيطة لأنها نشأت على ضفاف الأنهار والبحيرات، فهي مجتمعات زراعية أي مجتمعات أرض وماء. وكان الماء إكسير حياة الإنسان العربي لذلك كان في هيام دائم إليه يتبعه في حلّه وترحاله، بل إن المرء ما فتى يتبع مواقع القطر ويراقب حركة السحاب، فيسعد لنزول المطر لأنه نشور للحياة ومتعة للحي وانتعاش للطبيعة. واستأثر الماء باهتمام العربي فكان يطلبه أيام الجذب والقحط والجفاف ويقيم طقوس الاستسقاء لكنه أيضا كان يهابه في غضبه وعنفوانه لذلك كان يقدهه ظنا منه أن الآلهة تسكنه.

وظل الإنسان متعلقا بموضوع الماء الذي أشاد به في أشعاره بإطناب، وتحدثت عنه الأساطير والنصوص المقدسة في إسهاب. فالمتدبر في هذه المدونة يلحظ بيسر قداسة هذا السائل العجيب وأهميته، إذ منه خلق الكون وهو سيّد الشراب وعلّة الوجود، بل إنّ المتمحّص في الأساطير التي حيكت حول الماء وفي المعجم المتعلق به في آيات العهد القديم والعهد الجديد والقرآن الكريم، والمتعقب لدلالات هذا السائل فيها ليتنبه إلى أن الماء جاء حاملا لعديد الدلالات، وأن صور الماء ظلت مرتبطة بخيال الإنسان " فمن خلال ذاكرة الجسد ووظيفته الحسية يتم التعرف إلى قوانين الخيال القائمة على الخبرة الحياتية وعلى العلاقة الحسية مع الماء، إذ الخبرة بأكوان الماء المتحجبة هي التي تضي على الماء صفاته ورمزيته"². وبذلك علق المرء استهياماته بالماء وحمله جملة من الدلالات حتى صار هذا السائل "ملتقى المعتقدات الشعبية والعادات والأفكار والقناعات التي تضي عليه أبعادا مختلفة ودلالات ثقافية وشعبية واجتماعية وعقدية"³. بل إن الماء صار رمزا دينيا في فضاء المقدس الذي يحدد علاقة الإنسان مع الإله الذي يعبده، وقد خص هذا الرمز بهالة من التقديس والمحبة والرجاء حتى عد في بعض الأساطير والثقافات إليها⁴ يهابه الإنسان المتدين ويخشاه.

كما اعتقد الإنسان أيضا في النار وقدها فسرق برومثيوس قبسا منها أهداه إلى شعبه ظنا منه أنها سر الحياة، وعبد المجوس "أتارا" أما الساميون فقد ضحوا بأبنائهم حرقا في النار المقدسة، وأما العرب فقد كانت للنار عندهم وخصوصا في العصر الجاهلي مكانة مهمة، إذ اعتقدوا بقواها السحرية، فكانوا يشعلونها لدرء شر قوم اشتد بأسهم، وعرفوا كذلك نار الغدرة التي كانت توقد بمنى للتشهير بالغاادر لأن الغدر من

1- عبد الحميد بن سلامة، قضايا الماء عند العرب قديما، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2004، ص.7.

2- أحمد بلحاج آية أورهام، شعرية تمركز في ميتافيزيقا الماء، ضمن موقع

أواب (<http://awabballhaj.arabblogs.com/archiva/2007/4/203677.html>).

3- عزيز العرابوي، رمزية الماء في التراث الشعري العربي: دراسة سيمنائية، مجلة الرافد، عدد 87، فبراير 2015، صص.30-31.

4- لاحظ أن الإنسان في الأساطير القديمة عرف أسماء متعددة لآلهة الماء من ذلك: إله إيد (ID) إله المياه العذبة، والآلهة نينا (NINA) آلهة الينابيع والأنهار والإله نندارا (Nindara) إله البحر والإله أنبيللوا (Anpillou) وهو المسؤول عن الأنهار والبحيرات والماء العذب وحارس دجلة والفرات وغيرها من الآلهة.

أقبح الرذائل عندهم، وعرفوا أيضا نار السلامة التي كانت توقد للقادم من السفر سالما غانما¹، كما شاعت بينهم أيضا نار الطرد ونار السلم فكانوا يوقدون النار لطرد شخص لا يرغبون بعودته، أما نار السلم فكانوا يشعلونها للملدوغ والمجروح والمضروب بالسياط ولمن عضه الكلب حتى لا ينام الشخص فيشتد به الألم ويؤدي إلى هلاكه². أما أيام الجذب والجفاف فكانوا يوقدون النار ويستغيثون بها للاستمطار.

أضف إلى ذلك أن العرب قد خالطوا الفرس الذين كانوا على المجوسية يعبدون النار. فقدست بعض القبائل العربية النار وعبدتها تأسيا بالمجوس واعتقادا منهم أنها واسطة بين الله وخلقه وأنها من جنس الآلهة النورية³، وقد انتفع العرب بالنار في طهيهم للطعام وفي إنارتهم عند الحج وفي رحلاتهم الطويلة والشاقة صيفا وشتاء، كما كان العرب أيضا يستقسمون بالنار في تحالفاتهم فكانوا إذا عقدوا تحالفا بين قبيلتين أحضروا نارا وحلفوا عليها وألقوا عليها ملحاً وكبريتاً، وهي نار كانت معروفة في اليمن لها سدنة يقومون بأخذ اليمن وهم يسمون تلك النار "الهولة" أو "المهولة"⁴. وذلك لقدسيتهما. يقول ابن الأثير في هذا الصدد: "وكانت لهم (أهل اليمن) نار تحكم بينهم فيما يزعمون تأكل الظالم ولا تضر المظلوم"⁵.

ونروم من خلال هذه الورقة العلمية الحفر في الدلالات الرمزية التي حملتها المياه والنار في الأساطير والأديان لأن الرمز لا يمكن أن يحيا إلا في ظل التجربة الدينية ثم إن الدين "نظام رمزي ذو أغراض اجتماعية وإنه في ذات الوقت نظام من الرموز يعمل على إقامة حالات نفسية وحوافز قوية وشاملة ودائمة بين الناس، عن طريق صياغة مفهومات عن نظام الوجود مع إضفاء هالة من الواقعية على هذه المفهومات بحيث تبدو هذه الحالات النفسية والحوافز اقية بشكل فردي"⁶. فما هي أهم الدلالات التي اتصلت بهذين العنصرين الكونيين؟

2- مدخل اصطلاحي:

لما كان القدسي المتعالي لا يجد اكتماله إلا في الدنيوي، ولما كان العالم يكتنفه الغموض والالتباس كان لا بد للمرء أن يسعى إلى تفسير الظواهر الغامضة إذ هو أبدا مهووس بالبحث عن المعنى وراء ما لا يستطيع فهمه، وكان لا بد للمتخيل أن يتبوأ منزلة أثيرة عند الإنسان العارف لأنه رأسماله الرمزي الذي قد يوفر له إجابة شافية تغنيه قلق السؤال والحيرة "فقبل الإنسان بذلك اختياراً أو قسراً مقايضة حقائق الوجود العينية بحالات افتراضية موطنها أشكال رمزية من كل الطبائع"⁷، وبذلك اختلق الإنسان فكرة الرموز

1 انظر الفلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص.209.

2-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3-المسعودي، مروج الذهب، الجزء الأول ص.470.

4-الألوسي، بلوغ الأرب، ج2، صص.163-162.

5-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص.244.

6-كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد البدوي، مركز الدراسات العربية، بيروت، 2000م، ص.45.

7-سعيد بنكراد، سيميائيات النص: مراتب المعنى، منشورات ضفاف، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى 2018، ص.17.

التي أثبت المتخيل الديني خاصة وكانت وسائط لفهم العالم المتعالي من أجل "الإجابة عن أسئلة البدايات والدينيويات والأخروييات بعضها أو جميعها"¹. ومن أهم الرموز التي توقفت عندها الإنسان في الأساطير القديمة والأديان رمزا الماء والنار على اعتبار أنهما من الرموز الأساسية التي انبنى عليها الكون وكان بها الخلق إلى جانب التراب. في مختلف الحضارات والأديان. لذلك اهتم بهما الإنسان واعتقد فيهما حتى ألهمهما وحمّلهما جملة من المعاني التي استهام بها. وتهفو هذه الورقة إلى تعقب هذه الدلالات التي اكتنز عليها ثنائي الماء والنار، غير أنه ومن باب الإجراء نرى أنه من الضروري أولاً أن نحفر في معنى الرمز لغة واصطلاحاً. فما مفهوم الرمز؟

2-1- في مفهوم الرمز:

جاء في لسان العرب أن الرمز مصدر من رمز يَرمُزُ ويَرمُزُ بمعنى أشار ورمزته المرأة بعينها غمزته، والرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفيتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفيتين والضم. والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين²، ويكاد لسان العرب يتفق وبعض المعاجم العربية الأخرى كتاج العروس للزبيدي و"القاموس الحيط" للفيروزبادي وغيرهما في أن الرمز دال في اللغة على معنى الإيماء والإشارة والعلامة. أما في قاموس اللغة الإنجليزية فيدل لفظ (symbol) على معنى العلامة (sign) أو غرض (object) يعبر عن شخص أو فكرة أو قيمة أو غير ذلك. ولكن كلمة رمز مأخوذة في أصل معناها من اليونانية (sun-bolon) وهي "تعني قطعة من الخزف أو الخشب تقسم بين شخصين بيد كل واحد منهما قسم يدل على هوية أحدهما ويثبت طبيعة صلته بالآخر. وهذان الشخصان يمكن أن يكونا ضيفين أو حاجين أو دائنا ومدينا. وبالجمع بين قسي القطعة يعترف الطرفان بما بينهما من ضيافة أو صداقة أو دين. لذلك يتضمن الرمز معني الفصل والوصل في الوقت نفسه. إذ أن السابقة (préfixe) اليونانية (sun) تعني دائماً فعل الجمع، وهي تأتي قبل فعل (ballein) وتدل حرفياً على: ألقى أورمى مصادفة. وقد استعملت الرموز في اليونان القديمة باعتبارها علامات يتسنى للأباء بواسطتها العثور على أبنائهم المعروضين للبيع"³.

وأما اصطلاحاً فقد تباينت تعريفات الرمز لأن "الرموز تنتهي إلى حقول بحث متعددة جداً ومتشعبة جداً"⁴ على حد تعبير ريكور، فاعتبر ميشال مسلان (Michel Messlin) أن "كل رمز علامة مرئية فاعلة،

1- بسام الجمل، المتخيل الديني: حوار، مكتبة التنوير، د.ت، ص.6.

2- انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (رمز).

3- بسام الجمل، من الرمز إلى الرمز الديني، مطبعة التفسير الفني بصفاس، الطبعة الأولى، جانفي 2007، ص.13.

4- انظر بول ريكور، نظرية التأويل، ترجمة سعيد القاسمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية 2006، ص.94.

يظهر كأمر حامل لقوى نفسية واجتماعية¹، وهو في نظره لغة الإنسان التي تحتل عديد المعاني والدلالات²، وحمل فرويد الرمز حمولة نفسية فكان "انعكاسا فوق الوعي للطبيعة النفسية للإنسان، إضافة لإدناؤه دون حرج رمزية الأساطير من الأعراض المرضية النفسية"³. وذهب كارل يونغ (K.Yung) إلى أن الرمز " هو مركز أو بالأحرى مجمع تنعكس فيه الذات الإنسانية جمعاء"⁴ أما مرسيا إلياد (Mercia Eliade) فرأى في الرمز "نوعا من الحماية بما له من دور علاجي يسمح للإنسان بإيجاد لغة وتجربة، زمن بدئي أولي فالحنين لزمن ضائع قد وجد بواسطة الرمز"⁵. واعتبر بول ريكور (Paul Ricoeur) "أن مفهوم الرمز يجمع بين بعدين بل يمكن القول بين عالين للخطاب أحدهما لغوي والآخر من مرتبة غير لغوية"⁶. والذي نخلص إليه ههنا أن الرمز مفهوم يتأبى عن الحصر لأنه قورب من زوايا نظر مختلفة وهو موصول بحقول معرفية متنوعة منها الدين والأدب والسياسة وغيرها. يقول الكاتب بسام الجمل في الصدد: "والذي نخرج به هو صعوبة الخلوص إلى تعريف جامع مانع للرمز، وذلك لأسباب عديدة منها تباين مناهج المقاربة بين العلماء المتخصصين في هذا الباب (التحليل النفسي، الأنثروبولوجيا، الفينومينولوجيا..) ومنها تعدد ضروب الرمز ومستوياته (الرمز الديني، الرمز الأدبي، الرمز السياسي...)"⁷. ولكن الأمر الذي نطمئن إليه أن الرمز وإن تآبّت ماهيته عن التحديد والحصر إلا أنه قابل للتأويل لأنه يبعث على التفكير كما أقر ذلك ريكور وهو يمتاز بخاصتين أولاهما أنه متعدد الأبعاد إذ هو ينطق "بعلاقة بين الأرض والسماء أو علاقة بين الفضاء والزمن أو علاقة بين التعالي والمحايثة"⁸، وثانتهما أن الرمز الواحد يحتل عديد المعاني. فإذا كان الرمز وعلى هذا النحو حقا دلاليا متسع المعاني فماهي أهم الدلالات التي تعلق بمصطلحي الماء والنار في النصوص الأسطورية منها والدينية.

1- ميشال مسلان، علم الأديان، ترجمة عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2009، ص.245.

2- المرجع نفسه، ص.251.

3- المرجع نفسه، ص.252.

4- المرجع نفسه، ص.257.

5- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

6- بول ريكور، نظرية التأويل، ص.95.

7- بسام الجمل، من الرمز إلى الرمز الديني، ص.28.

8- المرجع نفسه، ص.27.

3- رمزية الماء:

3-1- مفهوم الماء:

يذكر ابن منظور في لسانه أن الماء والماء واحد وهو الذي يشرب¹، أما اصطلاحاً فيذكر أبو بكر بن وحشية في كتابه "الفلاحة النبطية"² صفات متعددة للماء حين خصه بباب كامل حول استنباط المياه وهندستها ومنها: الانبساط والنظافة والبرودة والرطوبة وهي صفات يمكن للإنسان أن يدركها في كل مراحل تاريخه. أما محمود شكري الألوسي فيقر أن الماء "مادة الحيوان وسيد الشراب وأحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي فإن السماوات خلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله تعالى منه كل شيء حي"³. والمتأمل في نصوص الأساطير القديمة والنصوص المقدسة يلحظ أنها توفرت على مصطلحات الأنهار والينابيع والبحار والأمطار والأنواء وأن العرب قد ذكروا في لغاتهم "مئات الألفاظ الدالة على الماء بحسب كميته وموقعه وصفاته: ف السحل والسمل هو الماء القليل أو ما تبقى منه. والطغم والغمر هو الماء الكثير، السبع والسيح والغيل هو الماء الجاري على وجه الأرض، فإذا كان جارياً غزيراً عذبا كان معيناً، وأما إذا كان قليلاً فهو الوجه والشول، والضحل هو الماء القليل على الأرض لا عمق له. فإن كان قليلاً ليس له مدد فهو الثمد. والقش ما جمد من الماء على كل شيء. فإذا نزل جامداً من السماء فهو برد، والثغب مسيل الماء في الوادي، والثغب والثعبب الماء المستنقع في حفرة، فإذا سال بين البئر والحوض فهو الغرب، وإذا اجتمع في الجبل فهو الوجد، وإذا تغلغل بين الأشجار فهو الغلل، والجواز هو الماء الذي يسقاه الزرع فإذا توضع تحت الرمل فهو الكر والحسي، والماء المالح هو المأج، والصافي هو الروق"⁴.

3-2- رمزية الماء بين الأساطير والأديان:

اتصل الماء منذ العصور القديمة بدلالات ثلاث هي الحياة والطهارة والبعث المتجدد⁵. واتصل أيضاً بالثواب والعقاب وهي معانٍ سنلّفها مبثوثة في الأساطير القديمة وعبر الرحيل الثقافي من ديانة إلى أخرى.

1- انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (موه).

2- انظر ابن وحشية، الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، الطبعة الأولى، دمشق، 1993م، ص.52.

3- محمود شكري الألوسي، الماء وما ورد في شربه من الآداب، أكاديمية المملكة المغربية، جمادى الثانية مارس 1985، ص.3.

4- انظر لبانة مشوح، الماء في ثقافة الشعوب، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 59، الجزء 2، ص.602.

5- جاء في معجم الرموز قول صاحبه:

« Les significations de l'eau peuvent se réduire à trois thèmes dominants: source de vie, moyen de purification, centre de régénérescence. Ces trois thèmes se rencontrent dans les traditions les plus anciennes et ils forment les combinaisons imaginaires les plus variées, en même temps que les plus cohérentes ». Voir J:Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, article (eau), p.295.

3-2-1- الماء أصل الخلق ورمز الحياة:

استقر رأي الإنسان منذ العصور الغابرة على أن الماء هو أصل الخلق فاعتقد الفرس "أن الله بدأ الخليقة بالماء ثم أتبعها بالنار والنبات والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان في اليوم الأخير"¹، وآمن البابليون أن بداية الكون كانت بحرا حلوا واعتبر المصريون القدامى أن "الماء أصل كل شيء إذ أن رع إله الشمس انبثق من أعماق البحار العميقة المحيطة بالعالم"². وأمنت عديد الحضارات أن الماء أصل الخلق وهو مبعث الحياة والتجدد ناهيك أن الفراعنة اعتقدوا "أن العالم انبثق من المياه وأن الخليقة منها جاءت إذ يغتم فيضان النيل الأرض المصرية كل عام فتنتعش بالماء وتعود الخصوبة إلى الحياة النباتية وهكذا تتم دورة الحياة كالمياه وتقام لها الصلاة لاعتقادهم أن الماء هو نقطة المركز لدائرة التكوين بالنسبة إلى الأرض والكائنات الحية التي تعيش عليها"³.

كما اعتبر الماء وسيلة لمبعث الحياة بعد الموت لذلك كان الهندوس "يلقون رماد موتاهم بنهر الغانج لتبعث أرواحهم من جديد ولتكون رمزا للخلود والحياة الجديدة"⁴، وأما في الأسطورة السومرية فإن إنانا تنزل إلى العالم السفلي لإنقاذ أخيها ولا تعود للحياة إلا عندما يرشها أحد رسولي إله الحكمة بماء الحياة. والطريف في الأساطير القديمة أن الماء كان رمزا للخصوبة لذلك تماهى بالمرأة فالصابئة مثلا كانوا يعمدون "المرأة في النهر بعد الأسبوع الرابع من ولادتها في طقس يرمز إلى ارتباط المرأة رمز الخصوبة بالماء رمز الحياة"⁵.

والمتدبر في النصوص التوحيدية المقدسة يلحظ أن دلالة الماء على معنى الحياة والخلق والتجدد قد تسللت إلى الثقافة اليهودية خاصة والإسلام فالماء في التقليد اليهودي كان رمزا للخلق إذ في البدء كان العماء وفي البدء خلق الرب السماوات والأرض والمياه التي اكتنفها الظلمة وفي البدء أيضا "كَانَ رُوحُ اللَّهِ يُرْفَرُفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ"⁶. واعتبرت اليهودية الماء كذلك رمز الحياة وليس أدل على ذلك مما حصل لبني إسرائيل من عطش كاد أن يتلفهم عند خروجهم مع موسى⁷ لولا أن سقاهم ماء فأطفأ ظمأهم وعادت إليهم الحياة بأمر من الرب. جاء في سفر الخروج قوله: "تَقَدَّمَ الشَّعْبُ وَخَذُ مَعَكَ بَعْضَ شَيْوْخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَذُ بِيَدِكَ عَصَاكَ أَيضًا الَّتِي ضَرَبْتَ بِهَا النَّهْرَ فَهِيَ أَنَا أَقْفُ هُنَاكَ أَمَامَكَ عَلَى الصَّخْرَةِ فَيَنْفَجِرُ مِنْهَا الْمَاءُ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ"⁸.

1- لبانة مشوح، الماء في ثقافة الشعوب، ص. 590.

2- المرجع نفسه، ص. 591.

3- أمال عربي، الأساطير والطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة والأديان، مجلة أسطور، العدد 5، ص. 22.

4- المرجع نفسه، ص. 25.

5- لبانة مشوح، الماء في ثقافة الشعوب، ص. 594.

6- التكوين 1: 2.

7- الخروج 17: 3.

8- الخروج 17: 5-6.

أما في القرآن الكريم فالماء أصل كل موجود كما يقر بذلك نص الوحي حين يقول: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"¹، بل هو "معجزة من معجزات الخالق ينزله من السماء بقدر ويسكنه في الأرض ويجعله قسمة بين الناس، فمنه شراب ومنه شجر يحيي به الأرض بعد موتها ويخرج منها نبات كل شيء فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج، ومن كل زوج كريم"². بل إن الماء هو واهب الحياة وليس أدل على ذلك من نموذج موسى الرضيع حين ألقته أمه في اليم خوفا من بطش فرعون وقتله إياه فكان الماء ملاذه الآمن وكان الماء مبعث الحياة مثلما أشاد بذلك القرآن الكريم في قوله: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"³.

3-2-2- الماء رمز الطهارة:

عد الإنسان المتدين الماء منذ القديم مطهرا رمزيا من النجاسة حتى أن مقدمي النذور والمعترفين بذنوبهم كانوا يتطهرون في أماكن خاصة في المعابد حيث "حفرت الآبار لتموين هذه الأحواض بالماء وللتبرك أيضا بالماء المقدس"⁴. واعتبر الماء في المعتقد العراقي القديم أيضا وسيلة للتطهر من الشرور والأرواح الخبيثة وليس أدل على ذلك مما ورد في تعويذة بين الإله مردوخ ووالده إيا وجاء فيها ما نصه:

"هيا بني يا مردوخ

خذ طاسا

واملاه من مصب النهرين

واقرا على هذا الماء تعويدتك المطهرة

وبتعويدتك المطهرة المقدسة طهر

الشخص ابن الهه ورش عليه بهذا الماء

وامسح به جبينه واعصب رأسه"⁵

واستمر التفكير بالماء عنصرا مطهرا حتى مع ظهور الأديان حيث اعتبر الماء رمزا للطهارة الروحية والطهارة الجسدية.

3-2-3- الماء رمز الطهارة الروحية:

الطهارة الروحية يجليها طقس التعميد وهو ممارسة طقسية قديمة تضرب بعمق جذورها في التاريخ القديم "فالبوذا تعمد عند مولده والطقوس الآشورية والمصرية عرفت العماد وشعوب أخرى كانت تتبع نظام التطهير الطبيعي. الأتروسك كانوا يتطهرون بأمطار شباط لكي يشتركوا في الحياة الجديدة التي

1- الأنبياء 21: 30.

2- عبد الحميد سلامة، قضايا الماء عند العرب قديما، صص. 228-229.

3- القصص 28: 7.

4- سعد عبود سمار، المقدس عند العرب قبل الإسلام، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2019، ص. 101.

5- المرجع نفسه، ص. 102.

ستنفض مع الربيع. في البيرو كانوا يتطهرون في أيلول انسجاما مع الأرض التي كانت تغتسل بالندى. الهنود ينزلون في نهر الغانج وهم يرددون (أمها الغانج طهرني)¹. ولكن التعميد عرف أيضا في التقليدين اليهودي والمسيحي ولكنه في المسيحية شحن بأبعاد رمزية في متخيل المتدين واعتبر طقسا أساسيا لا يصح الإيمان إلا به أسوة بالمسيح الذي قام يوحنا المعمدان بتعميده وعملا بأمره القائل: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس"².

والتعميد يكون "برش الماء على الجبهة أو غمس أي جزء من الجسم في الماء ويكثر أن يغمس الشخص كله في الماء ولا بد أن يقوم بهذه العملية كاهن يعمد الإنسان باسم الرب والابن والروح القدس"³. وببدو أن هذا الطقس كان مهما في حياة المسيحي لأنه مطهر له من خطاياهم إذ التعميد "فريضة مقدسة يشارفها بالغسل باسم الأب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح... والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد"⁴. فالتطهير إن كان لأجل التماس الغفران تأسيا بالمسيح الذي تقدم إلى معمودية يوحنا ليقيم الدليل على أنه حامل لخطايا العالم وأنه مخلص لأمتة فهو بقبوله التعميد "إنما يخضع لإرادة الأب ويجعل ذاته بتواضع في صفوف الخطاة إنه حمل الله الذي يحمل هكذا خطيئة العالم"⁵. وعليه إذن فالماء يستحيل رمزا للخلاص الروحي.

ونلفي التعميد أيضا عند الصابئة ركنا أساسيا في عقيدتهم وهو يعني الارتماس بالماء الذي يعد سائل الحياة إذ هو "يمنح الجسم العافية، ويقي الإنسان من قوى الموت، ويعد بحياة الروح الأبدية وميزته الثانية هي التطهر فمثلما يطرد الماء القذارة والتعفن والنجاسة من الجسم فإنه يطرد الخطيئة، والنجاسة من الروح والماء"⁶. بل إن الماء قد عد عند الصابئة المندائيين "إحدى الوسائط التي تصلهم بالإله الواحد، وهو يمثل عندهم شكلا من أشكال طهارة الروح والجسد، فهو أداة التعميد الأولى"⁷، وهو "يمكنه إلغاء النجاسات وأخطاء المرء، كما أنه يغسل كل عائق لا يمت للروح بصلة"⁸ وعليه إذن

1-أياد حامد محمود يوسف، سر المعمودية وموقف الإسلام منها بحث في مقارنة الأديان، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد 6، العدد 1، 2007.

2- انظر متى 28: 19.

3- أحمد شلبي، مقارنة الأديان، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة 1998، ص. 172.

4- المرجع نفسه، صص. 172-173.

5- نخبة من اللاهوتيين، معجم اللاهوت الكتابي، مادة معمودية، ص. 755.

6- صادق شهيد الطائي، سحر الفضة... سر الماء دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى 2010.

7- لبانة مشوح، الماء في ثقافة الشعوب، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 59، الجزء 2، ص. 592.

8- نعيم عبد المهلهل، المندائية: العراق برانه البيض، منشورات بغداد، عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، 2013، ص. 18.

فالتعميد شعيرة أساسية في الطقوس الصابئية والماء فيها يكتسي مكانة مركزية لأن له "علاقة بالحياة الأولى أي هذا الامتزاج بين الحياة الروحانية والمادية من خلال الماء"¹،

فقيمة الماء إذن إنما يكمن في هذا الصفاء الروحي الذي يهبه للصابئي إذ علاقته بهذا السائل إنما هي علاقة خاصة فهو عندما يصبغ في الماء يشعر بصفاء روحي يجعله ينسى إن كان الماء بارداً أو حاراً كما أنه لا يفكر إن كان الماء بارداً أو حاراً كما أنه لا يفكر إن كان الماء ملوثاً أو لا لأنه ظاهر طالما كان جارياً². باختصار إن الماء في الطقوس الصابئية يستحيل رمزا للطهر الروحي ووسيلة لمعانقة عالم القداسة لأن الماء إنما يخلق توازناً روحياً قد يضمن للمندائي الحصول على مرتبة كهنوتية أو التواصل مع الذات المفارقة عبر الترقى في تطهير الروح والسمو بها عن أدان الحياة، باختصار إنه "أداة من أدوات إكمال مراسيم التقرب إلى الله، والاحتماء من كل خطيئة بصفاء الذهن ونقاء الروح وطهارة الجسد"³.

3-2-4- الماء رمز الطهارة الجسدية:

اعتبر الماء منذ الحضارات القديمة وسيلة لتطهير الجسد ففي الهند "يجري احتفالاً عند العام الجديد، غسل تماثيل العبادة والمؤمنين"⁴، وفي مصر "كان الكهنة يغتسلون في بحيرة مقدسة قبل الفجر مطهرين أجسادهم هكذا، ثم يجرون دورة المعبد مهريقين الماء ومشعلين البخور، وكانت أبواب المعبد تفتح في اللحظة التي تشرق فيها الشمس، وكان تماثيل الإله يجرد من ثيابه عندئذ ويغسل قبل أن يهرج مجدداً ويبقى مغلقاً عليه حتى صباح الغد"⁵. فالطهارة الجسدية لم تكن مستقلة عن طهارة الروح لأن طهارة الروح من طهارة الجسد، و"طهارة الجسد دليل على نقاوة الروح وصفائها، ونجاسته دليل على انحطاطها"⁶. وقد استمر هذا الاعتقاد في طهارة الماء في الأديان أيضاً وإن المتأمل سواء اليهودية أو الصابئية أو الإسلام يلحظ أنها أديان نصت على ضرورة الاغتسال فكان الماء فيها رمزا لطهارة الجسد. ففي التقليد اليهودي يوصى بالغسل سبع مرات، و"أصبح الماء رمزا مقدسا للطهارة والتطهير عند اليهود فهم يجدونه في عيد المظال ويجرون خلال سبعة أيام غسولات الماء مستعملين قوارير من ذهب"⁷،

أما في الإسلام فالماء "رمز الطهارة الذي يؤكد على الغسولات الشعائرية التي يجب على المؤمنين إجرائها قبل كل واحدة من الصلوات الخمس اليومية"⁸. بمعنى آخر إن الطهارة في الإسلام يجلوها فعل

1- أمانة الجبلوي، الصابئة في الثقافة العربية الإسلامية، الدار التونسية للكتاب، الطبعة الأولى 2020، ص. 211.

2- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3 لبانة مشوح، الماء في ثقافة الشعوب، ص. 594.

4- فيليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص. 353.

5- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

6- فؤاد إسحاق الخوري، إيديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص. 13.

7- أمال عرييد، الأساطير والطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة والأديان، مجلة اسطور، العدد 5، كانون الثاني / يناير 2017، ص. 33.

8- فيليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص. 254.

الوضوء في الصلوات وفعل الاغتسال عند الجنابة، عملا بقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا"¹ إذ لا سبيل إلى معانقة عالم المقدس و لقاء وجه الله إلا بجسد نظيف طاهر، وعليه يستحيل الماء السائل الأنسب لبلوغ القداسة وهو رمز للطهارة ورفع النجاسة التي لا تتم بحسب الإسلام إلا ب"ذكر اسم الله على الماء وبالتغطيس في المياه الجارية الطاهرة سبع مرات وميزة الإسلام التبسيط فالأمور بالنيات إذ يمكن ملء وعاء وإفراغه على الجسد، بعد ذكر اسم الله، ومن المهم معرفة أن كل شيء لا يحل عليه اسم الله يسكنه الشيطان"².

3-2-5- الماء رمز للثواب والعقاب:

عد الماء في الأساطير الضاربة في القدم رمزا للعقاب فالإله أهرمان عند الفرس "غضب من الفساد الذي يعم العالم فعاقب البشر بالزامهم التطهر من ذنوبهم وفسادهم وأغرقهم بالمياه التي أصبحت طقسا دينيا يلزمهم الاستحمام بمياه النهر عند بزوغ الشمس وغروبها"³. وفي بلاد ما بين النهرين أغرق الإله إنليل أربع مدن عراقية قديمة هي أور والورقاء وكيش وشوروباك بسبب فسادها، كما ظهرت على الألواح السبعة السومرية أسطورة "تعتقد أن الآلهة أرسلت الطوفان العظيم لعقاب البشر المخطئين"⁴، وأنها أيضا قررت إغراقهم والقضاء عليهم بسبب تكاثرهم وكثرة ضجيجهم الذي أزعج الإله أنكي وبقية الآلهة. وقد تكون فكرة الماء عقابا إلهيا ارتحلت إلى الأديان السماوية ففي اليهودية كان الطوفان عقابا إلهيا لقوم نوح الذين كثر فسادهم في الأرض. جاء في سفر التكوين قوله: "رَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرٍ فِكْرٍ قَلْبِهِ يَتَّبِعُ دَانِمًا بِالْإِثْمِ"⁵.

والعقاب أيضا مأتاه تفشي الظلم لذلك قال الرب: "قَدْ أَزَفْتُ حَيَاةَ الْبَشَرِ أَمَامِي لِأَنَّهُمْ مَلَأُوا الْأَرْضَ ظُلْمًا لِذَلِكَ سَأَبِيدُهُمْ"⁶. ومأتاه أيضا تحلل المجتمع اليهودي في عصر نوح من سلطة الدين وسلطة الأخلاق المنظمة لحياة الإنسان إذ عمت الإباحية الجنسية فقد "حَدَّثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَتَكَاثَرُونَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ إِنجَذَبَتْ أَنْظَارُ أَبْنَاءِ اللَّهِ إِلَى بَنَاتِ النَّاسِ فَرَأَوْا أَنَّهُنَّ جَمِيلَاتٌ فَاتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِنَّ مِنْهُنَّ مَا طَابَ لَهُمْ"⁷. فكان الطوفان وكان الماء عقابا من أجل نسف واقع الدنس فالعقاب تطهيري بالأساس لأنه "لا شيء مثل الماء يرفع التشويه ويرفع الدنس"⁸.

1- الهائدة 5: 6

2- امال عرييد، الأساطير والطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة والأديان، ص. 34.

3- المرجع نفسه، صص 32-33.

4- المرجع نفسه، ص. 34.

5- التكوين 6: 5.

6- التكوين 6: 13.

7- التكوين 6: 1-2.

8- وحيد السعفي، في قراءة الخطاب الديني، ص. 143.

أما في الإسلام فيقف المتدبر في القرآن الكريم على آيات عديدة كان فيها الماء رمزا للدمار وكان ماء صديدا¹ وحميما يقطع الأمعاء² وماء كالمهل يشوي الوجوه³، وكان مطر سوء⁴ وكان مطرا من حجارة من سجيل منضود⁵ ولكنه أيضا كان طوفانا⁶ عقابا لقوم فاسقين⁷ وكافرين⁸ لا يلدون إلا فاجرا كفارا⁹، ولا يعبدون إلا الأصنام¹⁰. فكان الماء وسيلة لتطهير الأرض من الكفر والجحود والوثنية العمياء التي غمرت الأرض، وكان هذا العقاب إيدانا بميلاد واقع ديني جديد سيرسيه نوح النبي وأتباعه. ونلفي الماء أيضا رمزا للعقاب الإلهي في تجربة موسى ومع فرعون الذي طغى وتجبر فأغرقه الله هو أتباعه بحمة منه لتنجية موسى ومناصريه. جاء في نص القرآن الكريم قوله: "فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ إِضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَإِنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزَلَّفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ"¹¹. ولكن الماء أيضا كان رمزا للثواب فهو شراب المتقين الذين وعدهم الله بأن يسقيهم ماء فراتا¹²، وهو رزق منى به الله عباده الصالحين فهو القائل: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ"¹³، وهو القائل أيضا: "وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ"¹⁴.

4- رمزية النار في الأساطير والأديان:

4-1- في مفهوم النار:

اعتبر أرسطو النار مكونا أساسيا من مكونات الوجود إلى جانب الماء والهواء والتراب لذلك احتلت منزلة مهمة في حياة الإنسان القديم فاعتقد فيها وأللهاها وأمن بقدرتها السحرية على تحقيق خلاصه ونجاته في الحياة، وهو اعتقاد نلمسه في الحضارات القديمة والشعوب البائدة وفي النصوص المقدسة عهدا قديما وعهدا جديدا وقرآنا كريما. والنار في أصل معناها اللغوي تحيل على معنى النور كما ينبه إلى ذلك ابن منظور

1- إبراهيم 14: 16.

2- محمد 47: 15.

3- الكهف 18: 29.

4- الفرقان 25: 40.

5- هود 11: 82.

6- الأعراف 7: 133.

7- الذاريات 51: 46.

8- هود 11: 42.

9- نوح 71: 27.

10- نوح 71: 22 و 23.

11- الشعراء 26: من 63 إلى 67.

12- المرسلات 77: 27.

13- الشورى 42: 28.

14- البقرة 2: 22.

في لسانه¹، أما الجرجاني فيعرفها بأنها "جوهر لطيف محرق"². وقد عرف العرب سجلا زاخرا بعديد المصطلحات الدالة على النار والحافة بها كالوقد والكبريت والثقاب والشعلة والمارج من النار والشهاب والحريق واللظى واللهب والشواذ ونار الحطمة والضمم وغيرها. كما توفرت النصوص المقدسة سواء في التقليد الميوسميسي أو في الإسلام على مصطلحات النار وجهنم وغيرها. وإن حضور النار المتوهج في هذه النصوص جعل المرء يتعلق بها تعلقا شديدا حتى استحالت عند رمزا ملهما لعدد المعاني.

2-4- رمزية النار:

لم تكن النار في الفكر الديني الأسطوري منه والتوحيدي أقل قيمة من الماء إذ احتلت بعدا قدسيا منذ الديانات القديمة ووصولاً إلى الديانات السماوية لأنها كانت "ظاهرة ذات امتياز يمكنها أن تفسر كل شيء"³ على حد تعبير باشلار، وقد تنبه الإنسان الأول إلى النار من ملاحظته للبرق والنار المتولدة عن البراكين وحرارة الشمس ومن احتكاك الصخور لذلك دخلت في معجم حياة الإنسان وتبنتها الديانات الوضعية. وقد لجأ الإنسان المتدين إلى النار لا طلبا للدفع وحسب بل طلبا لشفاء المرض أو لتأمين محصول زراعي جيد أو لطرد الأرواح الشريرة أو لتزويج العازبات والحصول على الأولاد⁴، وقد اعتقد الإنسان في فاعلية النار ومارس لها طقوسا دينية هي أشبه بالممارسات السحرية، واعتبر هذه الطقوس "توسيطا للإله إلى درجة أصبحت شخصية الإله شخصية غائمة مهمة لا تكاد تعرف إلا من خلال المتجلي أي النار. فيتم جذب هذا المتجلي واستهضاه واستقدامه من خلال الطقوس التي تمارس للنار، فهناك تمازج وتداخل يصعب التفكيك بينهما"⁵. ولما كانت النار "بالنسبة إلى الإنسان الموضوع الأول لها جسده ورمزا لراحته"⁶. فقد تعلقتمته بها وقدسها حتى اعتبرها بمنزلة الإله أو أمانة دالة على حضوره، بل قد عدّها النص المقدس رمزا للانبعاث وعودة الحياة من جديد.

3-4- النار رمز للتجلي الإلهي:

وتجلوها كأحسن ما يكون النار في الزرادشتية والنار في تجربة النبي موسى في المرجعيتين اليهودية والإسلام. فالنار أو أثار (Atar) عند الزرادشتيين كانت رمزا للإله أهورمزدا الطاهر كالنار والذي لا يطرقه الفساد. وهي أيضا جوهر من جواهره اتخذه زرادشت ليقرّب صورة الإله إلى ذهن المؤمن. بل لقد قيل "إن زرادشت عد النار نور الإله أهورمزدا"⁷ لذلك قدسها الزرادشتي مرددا "لأنك محور نار أهورامزدا، لأنك

1- انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (نور).

2- الجرجاني، التعريفات، ص. 201.

3- غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ص. 11.

4- فانت محمد اللبون، رمزية عنصر النار بين الزرادشتية والإسلام، مقال منشور بموقع الكلمة بتاريخ 2019-06-30.

5- المرجع نفسه.

6- غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ص. 18.

7- أسامة عدنان يحيى، الديانة الزرادشتية: ملاحظات وآراء، آشور بانيبال للكتاب، العراق، الطبعة الأولى 2016، ص. 115.

محور الروح القدس، اسمك هو الأكثر تأثيراً من بين كل الأسماء ندنو منك أيتها النار، ناراً هورمزدا¹، بل إنه أقام لها محارق ومعابد كانت تجاور الينابيع والعيون وكان الزرادشتيون "يقدمون مجامر النار ويقبلون عتبة وأرض المعبد ويضعون أيديهم على صدورهم أثناء اقترابهم من المجرمة، ولا تعني كل هذه التفاصيل الطقسية عبادة النار. إن الشيء الوحيد الذي أوصى به زرادشت عن النار هو اللهب بالذكر والدعوات أثناء السير نحو مصدرها"². وأكد زرادشت على ضرورة الاحتفال بالشعلة النارية وقد أثر عنه أنه كان "يحمل الشعلة الموقدة من هيكل إلى آخر"³.

فالنار مقدسة إذن لأنها مكان تجلي القدسي ولكن القدسي مفارق ولا سبيل إلى معانقته لذلك كان لابد من تقديم القرابين لأن "الدين لا يستقيم ديناً إلا إذا استوى فيه الرب قرباناً"⁴، ولما كانت النار رمزاً للإله وجوهراً من جواهره كان لا بد من "تقديم القرابين إليها بالتقديس والمديح بالقرابين الخير القرابين السعيد وبالقرابين المحبوب بباركك أيتها النار، يا ابن هورمزدا"⁵، وقد استقر في قناعة الزرادشتي أن القرابين ليست إلا وسيلة لابتغاء مرضاة الإله لأنه "الرحيم الذي هو مصدر المجد والشفاء الكامل"⁶.

واستمر الاعتقاد في النار رمزاً للتجلي الإلهي في الأديان التوحيدية السماوية أيضاً، فالنار في تجربة موسى سواء في التقليد اليهودي أو الإسلام إنما أوجدتها الرغبة في رؤية الإلهي المفارق. ذلك أن موسى العبراني فوجيء وهو يرعى الغنم بلهيب نار وسط العليقة، فراح يستطلع الأمر فإذا بالنار إحدى أمارات ظهور القدسي وإذا بالنار إحدى علامات طهارة الفضاء المقدس الذي يستوجب من موسى خلع حذائه مثلما يجليه القول على لسان الرب: "لَا تَقْتَرِبْ إِلَى هُنَا، إِخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رَجْلَيْكَ، لِأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ"⁷. وما خلع الحذاء إلا اجلالاً للمقدس وإكباراً لواقع الطهارة لأن الحذاء ليس إلا بعضاً من الدنيوي المدنس. وبذلك كان موسى شاهداً على وجود يهوه، تبدى له ناراً في العليقة فاصطفاه ليكون رسوله إلى الناس ويقوم بينهم شاهداً على وجوده، كما موسى شاهداً على قوة يهوه فاقترض الأمر أن يبلغ الشعب وفرعون قوة يهوه⁸. والصورة ذاتها يستعيدها القرآن الكريم لولا أن موسى رأى النار وهو بين أهله من جانب الطور⁹. فذهب يطلبها ليأتي بقبس منها لأهله فتجلى له الله رب العالمين بين ألسنة اللهب صوتاً يردد: "يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"¹⁰، فكانت النار تقية تخفى وراءها الرب ليخاطب عبده موسى وكانت النار مباركة لأن

1- المرجع نفسه، ص. 116.

2- كارزان مراد عباس، العقيدة والقانون في فلسفة زرادشت، ص. 53.

3- أسامة عدنان يحيى، الديانة الزرادشتية: ملاحظات وآراء، ص. 117.

4- وحيد السعفي، القرابين في الجاهلية والإسلام، تبر الزمان، تونس الطبعة الأولى 2003، ص. 9.

5- أسامة عدنان يحيى، الديانة الزرادشتية: ملاحظات وآراء، ص. 118.

6- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

7- الخروج 3: 5.

8- وحيد السعفي، في قراءة الخطاب الديني، ص. 62.

9- انظر القصص 28: 29.

10- النمل 27: 9.

المقدس حل بها وهو مبارك بطبعه¹، بل أصبح الفضاء برمته مباركا مقدسا ولا سبيل إلى وطئه إلا بخلع النعل حتى لا يدنس لأنه مكان حلول الإله ومكان نزول الوحي على موسى لذلك خاطبه الإله قائلا: "إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوَّى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَاقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي"².

4-4- النار رمز للانبعاث:

يلوح لنا ذلك خاصة في نص الوحي الإسلامي حين تستحيل النار وسيلة من وسائل اضطهاد إبراهيم من قبل قومه الكافرين وحين تستحيل النار طقسا منظما من القوم من أجل وسم الضحية إبراهيم وتطويعه للناموس الذي قروا عليه. لأن إبراهيم النبي في نظرهم مارق عن الجماعة كافر بوثنهم وبأصنامهم التي شيدها أو ولم يخاطبهم مقرا إياهم قائلا: "أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟"³. لذلك كانت النار وسيلة من وسائل التنكيل بجسد إبراهيم عبر حرقه لأن الحرق وسم وتشويه لجسد الضحية من أجل ترهيبه وترويضه وهو لون من ألوان التعذيب غايته "إعادة إقرار السيادة بعد جرحها لحظة، إنه يعيدها بأن يظهرها في كل أمتها وألقها"⁴. هكذا تصبح النار آلية من آليات طمس هوية إبراهيم ونسف كيانه وتاريخه، إذ هي ستكون مميتة لإبراهيم كما توهم قومه غير أن التدخل الإلهي يحدث المعجزة حين تنقلب النار من لظى حارق مميت إلى برد وسلام كما يجليه قوله الله تعالى: "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ"⁵. وبذلك ينجو إبراهيم من الموت والهلاك وتستحيل النار رمزا لاستمرار الحياة والانبعاث من جديد.

5- الخاتمة:

لقد أسلمنا النظر في رمزية الماء والنار في الأساطير والأديان إلى جملة من النتائج:
- أولها أن الرمز قد ملك حياة الإنسان المتدين إذ هو اللغة التي يتوسلها من أجل فهم الواقع لأن الرمز ليس إلا "الوساطة الشاملة للفكر بيننا وبين الواقع، إنه يعبر قبل كل شيء عن لا مباشرة فهمنا للواقع"⁶، وبذلك استحال العالم إلى نص وإلى رموز لا بد من قراءتها وفك شفرتها من أجل إدراك الحقيقة

1- يقول تعالى: "قَلَمًا جَاءَهَا نُودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (النمل: 27: 8)

2- طه 20: 12-13-14.

3- الأنبياء 21: 66-67-68.

4- ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، ص. 82.

5- الأنبياء 21: 68-69.

6- انظر

لأن الرمز "مصاحب لكل تعبير عن الحقيقة"¹. والمتدبر في المدونة التي اعتمدنا يتنبه إلى أن العالم الديني عالم رامز يحتمل القراءة والتأويل بل هو يستحيل عند الإنسان العارف "كأننا يقول"، وما على المرء إلا الإنصات له من أجل تقليص المسافة بينه كذات قارئة وبين هذا العالم.

-ثانيها أن الماء والنار كانا من أهم العناصر الكونية التي تعامل معها الإنسان واتخذها رموزا من أجل ما استغلق على فهمه في واقعه فحولها إلى نصوص ليست إلا انعكاسا ذاتيا لفراغات الرمز. فتبوأ الماء مكانة أثيرة عنده إذ هو إكسير الحياة وبدونه لا يمكن للمرء أن يعيش فهو على هذا النحو العنصر الضروري الذي يؤثت عالمه الديني ولذلك قدسه وألهه وأسقط عليه استيهاماته حتى صار رمزا لا يحيا إلا في أعماق التجربة الدينية. فصار هذا السائل العجيب في متخيل الإنسان رمزا للخلق والتجدد ورمزا للطهارة الروحية منها والجسدية بل رمزا للثواب والعقاب. باختصار لقد أضحي الماء رمزا للاستمرار وأداة للخلاص. لذلك تعلق به المرء واعتقد أنه إله. وهو تعلق سيمتد إلى عنصر طبيعي آخر أثت الكون هي النار التي استحالت رمزا للقداسة ولحضور الإله في العالم الدنيوي أضف إلى أنها رمز للحياة والانبعاث المتجدد.

-ثالثها أن الرمز بات ملازما للإنسان كظله، فهو لا يمكن أن يعيش إلا في كنف المتخيل والمجاز والاستعارة التي ستكون خير وسيلة لإماطة اللثام عن غموض الكون والتباس الوجود، إذ ستستحيل كل الكائنات في نظر هذا الإنسان العارف محملة بالمعاني التي تلخص همومه وأحلامه وتطلعاته.

1- عمارة ناصر، اللغة والتأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون ودار الفرابي / بيروت ومنشورات الاختلاف / الجزائر، الطبعة الأولى 2007، ص.24.

المراجع:

- 1- القرآن الكريم، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة 1405 م.
- 2- الكتاب المقدس (العهد القديم)، كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، 1988.
- 3- ابن الأثير (أبو الحسن علي)، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة 2003.
- 4- ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1999.
- 5- ابن وحشية، الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، دمشق، الطبعة الأولى 1993.
- 6- الألوسي (محمد شكري)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الطبعة الثانية، د.ت.
- 7- _____، الماء وما ورد في شربه من الآداب، أكاديمية المملكة المغربية، جمادى الثانية، مارس 1985.
- 8- باشلار(غاستون)، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984.
- 9- بنكراد(سعيد)، سيميائيات النص: مراتب المعنى، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى 2018.
- 10- الجبلوي(أمنة)، الصابئة في الثقافة العربية الإسلامية، الدار التونسية للكتاب، الطبعة الأولى 2020.
- 11- الجرجاني(علي بن محمد)، معجم التعريفات، دار الفضيلة، د.ت.
- 12- الجمل (بسام)، المتخيل الديني، حوار من إعداد مؤمنون بلا حدود، مكتبة التنوير، د.ت.
- 13- _____، من الرمز إلى الرمز الديني، مطبعة التسفير الفني، بصفاقس، الطبعة الأولى، جانفي 2007.
- 14- الخوري (فؤاد إسحاق)، إيديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى 1997.
- 15- ريكور(بول)، نظرية التأويل، ترجمة سعيد القاسمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية 2006.
- 16- السعفي وحيد، في قراءة الخطاب الديني، نجمة للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، 2008.
- 17- _____، القران في الجاهلية والإسلام، تهر الزمان، تونس، الطبعة الأولى 2003.
- 18- سلامة (عبد الحميد)، قضايا الماء عند العرب قديما، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2004.
- 19- سمار (سعد عبود)، المقدس عند العرب قبل الإسلام، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2019.
- 20- سيرنج (فيليب)، الرموز في الفن والأديان والحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، الطبعة الثانية 2005.

- 21- شلبي (أحمد)، مقارنة الأديان – المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة 1998.
- 22- الطائي (صادق شهيد)، سحر الفضة.. سر الماء: دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى 2010.
- 23- عباس (كارزان مراد)، العقيدة والقانون في فلسفة زرادشت، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2011.
- 24- عبد المهلهل (نعيم)، المندائية: العراق برانه البيض، منشورات بغداد، عاصمة الثقافة العربية وزارة الثقافة، 2013.
- 25- العريايوي (عزيز)، رمزية الماء في التراث الشعري العربي: دراسة سيميائية، مجلة الرافد، عدد 87، فبراير 2015.
- 26- عرييد (آمال)، الأساطير والطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة والأديان، مجلة أسطور، العدد 5، كانون الثاني/يناير 2017.
- 27- غيرتز (كليفوردي)، تأويل الثقافات، ترجمة محمد البدوي، مركز الدراسات العربية، بيروت، 2000.
- 28- فوكو (ميشال)، المراقبة والعقاب، مركز الإنماء العربي، 1990.
- 29- القلقشندي (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، 1922.
- 30- اللبون (فاتن محمد)، رمزية النار بين الزرادشتية والإسلام، مقال منشور بموقع الكلمة بتاريخ 30-06-2019.
- 31- محمود يوسف (أياد حامد)، سر المعمودية وموقف الإسلام منها، بحث في مقارنة الأديان، مجلة أبحاث، كلية التربية الأساسية، المجلد 6، العدد 1، سنة 2007.
- 32- المسعودي (أبو الحسن علي)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الشركة العالمية للكتاب، ش.م.ل.، دار الكتاب العالمية، والدار الإفريقية العربية، الطبعة الثانية، 1990.
- 33- مسلان (ميشال)، علم الأديان، ترجمة عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2009.
- 34- مشوح (لبانة)، الماء في ثقافة الشعوب، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 59، الجزء 2.
- 35- ناصر (عمارة)، اللغة والتأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الفرابي، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى 2007.
- 36- نخبة من اللاهوتيين، معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، ش.م.م.، الطبعة الثالثة 1991.
- 37- يحيى (أسامة عدنان)، الديانة الزرادشتية: ملاحظات وآراء، آشور بانينبال الكتاب، العراق، الطبعة الأولى 2016.
- 38- Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, Editions Robert Lagffont. Paris.
- 39- Paul Ricoeur, De l'interprétation, essai sur Freud, éditions Seuil, Paris.